طريق الديمقراطية

بقلم: نجيب محفوظ

تبدأ بأشكال وطقوس ثم تستحيل بالممارسة روحا تحتل مكانها الدائم فى اعماق الفرد والمجتمع . ولكن لا بد من البداية مهما تكن الظروف والاحوال ، فلا شك ان تذويب الفوارق بين الطبقات مناخ ملائم لها ، ولا شك ان التعليم والثقافة شرطان مهمان ، كذلك ديمقراطية الادارة والنقابة بل والاسرة ، غير انه اذا لم يتوفر ذلك فى الوقت الراهن على وجه مرض فلا يعنى هذا تأجيل الديمقراطية او الاستهانه بها ، اذ ان المماؤسة الصادقة كفيلة باستكمال النقص والسير فى الطريق الديموقراطى يقتضينا احترام مبادئ هامة .

اولا ـ الايمان بالشعب بصرف النظر عن حالته الثقافية والاقتصادية ، من منطلق انه ادرى بمصالحه وانه يهتدى بسهولة ـ وطالما اهتدى الى ذلك ـ الى من يمثلون هذه المصالح ، واحترام كلمته فى الاختير والنزول عند حكمها بالتسليم والرضا ، فيحكم من يحكم ويعارض من يعارض باسم الشعب وفى رحاب الشعب .

ثانيا ـ الايمان بالحرية ، والتحلى بآدابها ، وما آداب الحرية الا ان نؤمن بانها للجميع ، للضعيف قبل القوى ، وللقلة قبل الكثرة ، وللبغيض من الاراء قبل المحبوب منها ، وهى تقاس باتساع الصدر عند

الاصغاء وبالموضوعية عند المناقشة وبعفة القول عند الرد وبافتراض حسن النيه عند الخطأ او ما نتصور انه خطأ .

ثالثا ـ الايمان بحرية الصحافة باعتبارها الترمومتر الحقيقى للممارسة الديموقراطية ، والصحافة الحره فى قوة البرلمان الحر ، وكيفية معاملة الصحافة تكشف عن الموقف الحقيقى من الرأى العام .

رابعا ـ الايمان بالنقد ، والتغلب على الحساسية الناشئه من تردد صداه فى الخارج ، والحق انه لا يوجد مجتمع بلا عيوب بل وبلا فضائح ، والادهى من ذلك ان السكوت على الفضائح لا يمنع تسربها الى الخارج ، وليس اعيب من الفضيحة الا الاغضاء عنها مع العلم بها . وطبيعى انى اقصد النقد لا التشهير بلا دليل او بينه .

وظيفتان ضروريتان للحياة الديمقراطية :

وللحياة الديمقراطية اعباء وخاصة عندما تستكمل صورتها فى القريب فتلعب المعارضة دورها ، لذلك تقترح انشاء وظيفتين ضروريتين .

1) وكيل وزارة دائم لشئون الخطة والمتابعة ، رجل فنى متخصص ، يتفرغ لتنفيذ الخطة ومتابعة نتائجها ، لا يتغير بتغير الوزارات ، ولا تشغله عن عمله الهام الازمات ، ولا الصراع السياسى ، فنضمن سير العمل بلا تردد ، ودون اعتراض على النشاط السياسى لمجلس الشعب او اعطاء فرصة للشكوى من ممارسة الحرية وما تتطلبه من مناقشات ومحاسبات .

2) وكيل وزارة لشئون مجلس الشعب ، يتوفر لاعداد البيانات المطلوبة من اعضاء المجلس ، واعداد الردود على اسئلتهم او استجوباتهم ، وتنفيذ ملاحظاتهم التى تبدى عادة عند نظر الميزانية ويتم حسابها عند نظر الحساب الختامى .

وبفضل هاتين الوظيفتين يتوفر الوقت للوزير لممارسة نشاطه فى مجلس الوزراء والتنظيم السياسى ومجلس الشعب والاتحاد الاشتراكى والاشتراك فى السياسة العامة واللقاءات الهامة مع الجمهور .

نريد ان يستمر نهوضنا الاقتصادى والاجتماعى والثقافى جنبا الى جنب مع نشاطنا الديمقراطى دون ان يؤثر احدهما على الاخر .

الحريـــــــــة

واننا لننتظر التجربة الديمقراطية الجديدة بشوق استمر كبته حوالى ربع قرن . فالحرية نعمه كبرى للفكر والوجدان والارادة . اجل انها ليست بالنعمة السهلة او اليسيرة ، بل لعلها ثقيلة بقدر ما هى جذابة ، ولعله ايسر للانسان ان يتولى المسئولية عنه آخر لينعم هو براحة البال . غير انه لا يخلو فى تلك الحال من شعور بالدونيه والتفاهه والضياع . ولذلك فمن خلال الحرية يتحدد موقف الحاكم من المحكوم كما يتحدد موقف المحكوم من

الحاكم . فالحاكم المطفق فى احسن احواله ـ عندما يتميز بالصدق والنزاهة والوطنية ـ يحب شعبه ويعمل على تقدمه فى جميع المجالات ولكنه لا يحترمه ، بل لا يستطيع ان يحترمه مهما ادعى خلاف ذلك . انه بحكم رؤيته السياسية بعامله من عل ، يؤمن بانه غير اهل لحكم نفسه او حتى للمشاركة الجدية فى الحكم . وتعانى الاقليات الدينيه والعنصرية فى عهده غوربة شديدة لا لتعصب حتمى فيه ولكن لان اى حكم مطلق يقوم على الثقة قبل الكفاءة ، والثقة توهب عادة للاقرابين من اهل ملته وعنصره ، هكذا تهتز الوحدة الوطنية فى حكمه بغير قصد . والمحكوم من ناحية اخرى يبادل حاكمه المطلق المثالى حبا بحب ، ويعترف بفضله ولكنه فى الوقت نفسع يشعر بطريقة ما باحتقاره له ، واستئثاره بكل شئ دونه ، فيضمر له الغضب ، وربما صار مع الزمن حقدا خفيا ، بعيش مع الحب جنبا الى جنب ، ويفرض عليه الوانا من التناقضات . لذلك فان الحكم المطلق يصيب الشعب بالانقسام فى الشخصية والازدواج فى العاطفة : الى ما يبتليه به من النفاق والسلبية واللامبالاة . ومهما يكنمن امر فلا شئ يمكن ان يصد الانسان عن التطلع الى حريته ، اساس وجوده الحق ، وشرط ابداعه الفكرى والوجدانى

، والعامل الجوهرى فى تطوره وتقدمه ، وسبيله الى تغيير دناه والسيطرة على كونه . لقد تحرر بالالة من العجز ، تحرر بالشراع من الرياح ، تحرر بالطيارة من جاذبية الارض ، تحرر بالفكر من الاوهام والخرافات , تحرر بالديمقراطية من القهر والسيطرة , تحرر بالاشتراكية من الاستغلال والفقر ، والحر هو الثائير الابدى . المنطلق فى طريق لا نهابة له .

المعذبون فى الارض

ومن أخبار العالم أن لجنة تابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى للأمم المتحدة وافقت على قرار يطالب كل الحكومات بأن تطبق بصورة كاملة اعلان الأمم المتحدة حول حماية الإنسان من التعذيب أو من أى صورة أخرى من صور المعاملة الوحشية أو المهينة . وأن ألوان التعذيب التى تعرض لها الإنسان فى حياته تملأ مجلدا أو أكثر ، بدأ من معاملة الأسرى والرقيق حتى ضحايا المعتقلات فى العصور الحديثة بأسم التأديب والتهذيب تعذب ملايين من البشر ، وبأسم الكراهية والانتقام تعذب ملايين أخرى ، وبأسم الحب أيضا تعذب أخرون فقط كانو يعذبون المتهمين بالزندقة فى محاكم التفتيش بغيت تطهير أرواحهم وأعدادهم للخلاص الأبدى وبأسم الصحة تعذب ألاف من المرضى عندما كان التعذيب يعتبر دواء لبعض الأمراض ، ثم هناك الرغبة الخفية فى تعذيب الغير التى يتخذ البعض بممارستها بأى علة من العلل وقد عرفنا التعذيب فى بلادنا عرفناه قبل ثورة يوليو بقدر غير قليل وعرفناه فى

عهد من عهود ثورة يوليو بصورة بشعة تبددت غريبة ومنفرة وغير مقبولة فى وجه ثورة قامت احتجاجا على الظلم والبغى ومن أجل تحرير المصريين ، ولكن المرضى والمنحرفين يوجدون فى المناخ الصحى كما يوجدون فى المناخ المريض وليس التعذيب البدنى وحده ما يعانيه الإنسان ، فثمة تعذيب أقل حدة ولكنه أعمق انغماسا فى الروح وتأثير فى الشخصية وهو ما تعرض له الإنسان بسبب عقيدته الدينية أو السياسية أو الفلسفية أو الفنية والتعذيب فى هذا المجال اتخذ أشكلا جديدة كالراقبة العمياء والمصادرة والمطاردة والتضييق وعدم الاعتراف والاحتقار والإفتراء والحملات العنيفة والمحاكمات ، ولا يضار أحد من هؤلاء لأنه يضمر الأذى أو يمارس الشر ولكن ذنبه الأول والأخير أنه خالف الأغلبية فى الرأى أو الرؤية ، وكثيرا ما يكون أرهاصا بمشرق خير جديد يحقق للناس حياة أفضل ، فمتى نتعلم التعايش السلمى فى الوطن الواحد .

www.anwarsadat.org